الأرنبة والأنف

محمد الخضري عبد الحميد

التقطت انفاسي قبل أن تتسرب فلولها الباقيات ، ثم ابتلعت لعابي بصعوبه ، وبعدها أنشأت ـ من خلال الاحذية الكثيرة المتبانية المكدسة فى تزاحم أمام مستوى عينى ، كالجذور ، فى غابة من السيقان والاقدام ـ أبحث عن ذيل فستان « سميحة » ، حتى وجدته ، فتعلقت به كأنه كان «القشة» فى المحيط .. وعلى الأثر اخذت نفسا عميقا .. وتكورت ناهضا بظهرى فى غمار الخضم ، تجاه « السطح » .. معاودا ببسالة ـ اشكر عليها ! ـ الكفاح لنصب القامة ، علنى اجد ـ بين سوق أشجار الغابة البشرية ـ موضعا لقدمى .. !

فى الحقيقة اننا كنا « احسن من غيرنا » ! .. فلقد خلفنا وراءنا الكثيرين، فى هول وكرب ، تائهين هناك على « محطة الجيزة » بعد ان لم يقو واحد منهم على ان ينفذ من ثغرة واحدة فى نوافذ القطار المقفلة اتقاء شدة الزحام ، او فى ابواب العربات المسدودة بركام هائل من لحم آدمى !! .. فذلك كان آخر قطار يحمل مواطنى الصعيد ، عقب انتهاء أعياد الاحتفالات القومية فى القاهرة .. ومن يتأخر عن اللحاق به فقد ضاعت قيمة تذكرته المخفضة ، ومن ثم كان ذلك الاقبال الجنونى الرهيب على قطار واحد محدود العربات .. بسيل من الآدميين عرم لا تحتمل أربعة قطر مجتمعة أن تستوعبه كله !

واتيح لى ان اتحامل فى نصف وقفة .. ومددت ذراعى أضرب بهما ـ عشوائيا ـ على غير هدى الا التخمين واقتفاء اثر ملامس الأثواب والبذلات والجلابيب والمعاطف ، حتى حطت اصابعى الجوالة فى همة عمياء فوق كتف حريرية الملمس فصرخت بمرح وبملء فمى المدفون : « انتى فين » ؟! فجاءنى صوتها ـ صوت « سميحة » زميلتى أمينة مكتبة المدينة ـ يقول فى حيرة الفريق آنس هتافا رحيما : « قل لى أولا : انت فين انت » ؟!

وعندما سحبت ذراعى الى الوراء بصعوبة بالغة ـ بعد أن اطمأننت على « موقعها ! » ـ انفرست اظافرى ، بفعل الضغط الثقيل غير المنتظم ـ فى شىء طرى ، وعندئذ واتانى صياح خشن غاضب : « حاسب ياشخص !! ..

حاسب ارنبة انفى » !! .. وانفجرت ضحكة بعيدة ! .. وكنت قد تعلقت واقفا ، وليس هنا ادنى خطأ فى التعبير فقد كان جسمى معصورا بين أجساد أخرى مدفوعا الى فوق .. أما القدمان فكانتا تتأرجحان باحثتين ـ عبثا ـ عن أرض صلبة ترتكزان عليها ! .. وكان فى المقدور تحمل هذا الوضع دقائق اخر .. لكن حدث أن اختل التوازن ، ولقيتنى بعد أن كنت « مزروعا ! » بالطول ، اذا بى أطفو على سطح الرءوس واتمدد ـ مكره اخوك ـ بالعرض .. !! وصرخ صوت آخر أكثر حنقا : « انزل يارجل حطمت الطربوش الهى يحطم ضلوعك !! .. انا مفتش زراعة ! .. فهمى السنجاب درجة رابعة ! .. انا .. أنا حامل تذكرة اولى » !! .. ولكن غطت على احتجاجاته الراقية المسكينة كركرة ضحكة أنثوية ناعمة ، بديعة المضمون .. !!

غير أن الله انقذنا بتخفيف العبء هونا ما ، فقد نزلت طائفة فى محطة المحافظة التالية ! .. وعموما .. لم يكن الامر « نزولا » بقدر ما كان «كركبة!» على أرض الرصيف حديدى البلاط !! ..

وبهذا وحده قدر لنا ـ اناوسميحة ـ أن نقف اخيرا عينا لعين ، وان كان جسدانا لا يزالان غاطسين فى العباب .. !!

وشىء ما حدا بى الى ان أتفقد اولئك الذين آذيتهم مضطرا ، وأضروا بنا مرغمين ، .. رأيت شيخا معمما بدينا وانيقا فى ذات الوقت يكابد فى بطولة صوفية محنة الاحتفاظ الى اقصى وقت مستطاع بالحيز الضخم الذى يشغله . .. لاشك انه هو بعينه صاحب « ارنبة الانف ! » ـ المجنى عليها ! ـ التى اصيبت بخمشات اظافرى !! .. ارنبة انفه ! .. هاها : .. مدرس عربى بالضرورة .. !!

وواصلت التعرف ـ فى حومة الشد والجذب والانفاس اللاهثة ـ على رفقاء «الحشر» العظيم ! .. لكننى جوبهت بأنين مهذب ساخط عندما لويت رقبتى الى الوراء : « ياسيد ! .. ياامواطن !.. كسرت نظارتى الشمسية ! ده نوع ايطالى ، مفيش منه ! .. حرام عليكم ياالخوانا ، ده انا مفتش زراعة ! .. انا رحت درجة أولى بتذكرتى الممتازة لقيتها مليانة بطرقاتها ناس وقفف وشنط ومقاطف » !! ..

وللمرة الثانية رنت الضحكة المجهولة السليطة .. !

وعلى اثرها صدحت الضحكة النسائية القريبة ذات الطابع المليء بالنزق والخفة ، والمفعم طربا أرعن غريرا !!

وفى احدى هزات القطار مالت « الحمولة » كلها ، فى اتجاه واحد .. فسقط الى قاع العربة من سقط .. وعام على المناكب والاعناق من ضغطه وقع الميل المفاجىء .. وكان الركام اللحمى كله قد طوى مفتش الزراعة ـ حامل تذكرة الدرجة الاولى ! ـ فراح يندب الظرف ، ويرثى النظارة ويترحم فى لوعة ثكلى على « شنبرها ! » الفريد نادر المثال .. بينما علت دمدمة الاستاذ البدين ، وهو ينشج بدوره و « يؤبن !! » ارنبة الانف المجروحة مع أخواتها الاخريات من معظم تضاريس الوجه .. !

وكما يحدث فى كل مرة من مرات الشكوى والزعيق والاحتجاج جلجلت الضحكتان ! .. طرقعت ضحكة الرجل الساخر البعيد .. وغردت ضحكة « الأنثى » الطروب التى لم نكن رأينا لها وجها بعد ... !

ومالت « سميحة » على أذنى هامسة وهى تجذبنى بما وسعها من جهد ، مشيرة الى مقعد غير بعيد : « باين عليها عروسة جديدة » !!

ونظرت الى الاتجاه الذى أو مأت اليه ، فاذا بصبية من الريف ، جاروا على حسنها الفطرى بضروب صارخة الابتذال من الكحل والحمرة والحناء ، فبدت فى ابتسامتها الوسيعة ـ شبه الثابتة ـ كدمية صغيرة من دمى الاعياد ذوات الالوان الفاقعة الزاهية ... !

واخشى ان اكون قد اطلت ـ اكثر مما ينبغى ـ فى تسليط نظرتى .. فان سميحة ما لبثت ان جذبت مرفقى الى الخلف فجأة ، مصطنعة ضحكة دهش مثيرة لتحول انتباهى الى ناحية أخرى يجرى فيها « مشهد » آخر ! .. كان الرجل ذو الضحكة العريضة المتحررة ، وهو ـ بالتأكيد ـ واحد من « أولاد البلد » أصحاب المقاهى ، أو ممن يحملون المؤهل الشعبى العريق «المعلم» .. كان قد استغل احسن استغلال قوة زنديه حتى شق لنفسه طريقا ، وانتشل من ركن الدوامة القصى ، مفتش الزراعة ، وعاد به فى حنكة رجل انقاذ سواحلى فاجلسه فوق تل من الحقائب كان يصنع لنفسه منه مقعدا عاليا ينثر من فوقه سخرياته الضاحكة ! .. وشكره الرجل فى رقة وكياسة ثم لم يلبثا أن اندمجا معا فى حديث شائق سمعنا منه بعض الشذرات :

ـ قلت لى ان سيادتك مفتش زراعة .. !

ـ آه والله يا .. يا .. اسم الكريم؟!

ـ محسوبك والعبد لله .. المعلم كرشه .. !!

ـ تشرفنا على كل حال ! .. انا فهمى .. فهمى السنجاب .. !!

ـ بالجودة يابو السناجيب ! .. تسمح بقى تقبل منى دى ؟!

ـ ايه دى ؟! .. نضارة ؟! ... مصرى ؟؟!

ـ آه ! .. والا اكمنها مصرى يعنى ؟! .. أجدع صنف وحياة رقبتك !

ـ لا مش قصدى .. صنف جميل فعلا .. لكن ...

ـ طب وشرفك ما تكسفنى ! .. ده احنا ولاد بلد ياسى مفتش ! .. دهدى .. !! .. أنا ما يخلصنيش أبدا تفضل كده من غير نضارة ! . آه . « الشهومية ! » بتاعتى ما تستحملش !! .. وانا كنت جايبها للواد ابنى حاكم اصله « تلموذ ! » وعايق حبتين ، لكن هايف .. خسارة فيه !!

ومن الركن جاءت مناقشة اعلى غطت على حديث ذينك الرجلين .. كان الاستاذ ذو العمة يجيب شخصا آخر بحمية

ـ .. يا ابنى أصل عامل عملية فيها ! .. ثم ان لسانى اخد على كده ! .. انا معلم لغة عربية ! .. ما اقدرش اقول: (مناخيرى) ! .. وكمان اسم « ارنبة الانف » حاجة مش غريبة ياأخى !.. ماقريتشى حتى «القراء الرشيدة» ؟!.. لكل أنف أرنبة ! .

عند ذاك جابهه شاب يقول :

ـ اشمعنى انوفنا احنا خاليـــة من الارانب ؟!!

ونظرت فاذا الشيخ المعمم كان قد اوجد له أولاد الحلال مكانا كريما على قمة « مقطف ! » ، ومن ثم ـ وهذا كان سر لطف الحديث ـ بدأ كلامه مـــع مناقشيه لينا رقيقا .. !!

ولشانى مرة أحسست بالمرفق الايمن يكاد يخلع من كتفى خلعا بفعل جذبة قوية قالت لى « سميحة » بعدها :

ـ مالك سارح كده ؟! .. عاجباك « العروسة الجديدة » ؟! .. ثم أتبعت ملاحظتها تلك بابتســامة حيية خجول وهى تومىء براســـها ذى الجـدائل النحيلة ، ثم تقول باسمة :

ـ اسمع .. « ارنبة انفى ! » انا الأخرى ، يكون فى علمك ، تشـم كل حاجة .. !

ـ كل حاجة زى ... ايه ؟!
ـ البنت الفلاحة المزوقة !.. عاجباك جدا ! .. واخدة بالى أنا .. !

هنـــا يقتضينى الحال ان اقول أن « سميحة » زميلتى أمينة المكتبة التى أعمل بها « كاتب حســـابات » لهـا مشكلة ! .. ومشكلتها تتصل ـ بخيط او أكثر ـ بمشـــكلتى ! .. فهى فتاة يتيمة ليست على جمال خارق ، تعول اخوة واخوات .. طالما حدثتها فى شأن الزواج فكانت تعترض بهدوء ، وتتأبى فى غير دلال ، خشية أن يصرفها زواجها عن اداء رسالتها الاساسية فى الصرف على اخوتها .. وكان شرطى الوحيد هو « ألا تعمل » عنـــدما نتزوج ، وليس ذلك نتيجة قصور فى مداركى .. ولكنه خلاصـــة مركزة و « صـــيغة نهائية » لتخطيط طويل المدى كنت قد وضعته سلفا لمســتقبل حياتى ! . وعند تلك الصخرة وقفت بزورقينـــا الرزينين التيارات .. فالاعجاب متبادل، بريئـا عذريا وقورا .. ولـــكن .. لانحن أصـــبحنا زوجين .. ولا نحن صرنا ـ وحسب ـ مجرد زميلين .. وبعد هذا كله ف ... عرض الزواج لا يزال قائما لا يلقى الا الامتعـــاض الرقيق دائما .. !

وكنت انا الذى جذب كوعها هى بغتة هذه المرة وانا أشير الى فتى ريفى قادم بطفل صغير يرفعه الى اعلى ذراعيه ، مشيرا نحوة الناس المتراصين ان يفسحوا للولا يضار الوليد ! .. ثم حط فى نهاية الشوط القاسى بوليده على حجر «لعبة البلاستك الملونة ! » صغيرة السن ، التى تلقفته بلهفة صبيانية طائشـــة وهى تهدهده وتناغيه بصـــفير ، وبتصـغير الحروف ومط شفتيها ودغدغة وجنتيه

ـ « اسم الله ! .. سلامة ! .. انت جيت ياكبير ! .. جيت يا مرزوق ؟! .. شربت من حنفيـة القطـر يامرزوق ياضنايا » ؟! ... قلت لسميحة دهشا:

ـ ارنبة انفك صحيح قوية الشم !.. دلتنا على « ارنبة » حقيقية !

فلما سألتنى كيف ؟ أجبتها :

ـ انظرى ! .. بنت ال ١٣ سنة ها هى تقدم للعالم «باكورة انتاجها»!!.. ياترى كم « نسخة !! » من « مرزوق » ستهديها عروس المولد هذه الى «مكتبة المجتمع » ؟!!

وسرحت « سميحة » وقد تشبثت عيناها باصرار حافل باستغراق عجيب تتأمل وتتابع دقائق المداعبات الطفلية التى احتدم أوارها بين العروس المخططة و .. و « مرزوقها ! » الاول ... !!

أما انا فبعد أن تذكرت علبة سجائرى اخرجت منها واحدة لاعطيها للشيخ ذى العمامة .. وهنا استلفت نظرى « مشهد » آخر أروع .. الاستاذ اللغوى من فوق ذرا المقطف الذى يتربع عليه ، يتلقى اشارات تحايا اخوية ودود بالفة الالفة من مفتش الزراعة الذى لاح انه « منسجم ! » جدا مع « المعلم كرشة » ويقول للشيخ :

ـ ازى ارنبة انفك دلوقت ؟ ! . فتحسسها الشيخ وهو يجيب مقهقها :

ـ بخير ! .. على فكرة .. ان زرت المركز ممكن تمر على الجنينة بتاعتى ؟!

ـ بكل ممنونية ! ... العنوان ايه ؟!

ـ آدى « الكارت » بتاعى .. !

والقى بالبطاقة فطارت عبر الاكتاف والرءوس وتلقاها « كرشة » الذى ناولها للمفتش وراحا يصلان ما كان قد توقف من حديثهما ! . واعجبنى ذلك الود الخالص الذى فرض نفسه فازال فى طبيعية رائعة مصطنع الحواجز .. وعولت على تتبع التجربة اللطيفة ، الا أن همسة خافتة أفلتت من بين شفتى « سميحة » قطعت تسلسل الافكار فى ذهنى :

ـ ياحلاوته ... !!

ـ هو مين ياسميحة ؟!

ـ مرزوق ... !!

وكان « مرزوق » الوليد يبادل امه (الطفلة) ضحكات ملائكيةعذبة .. فبانا لعينى ـ لست أدرى كيف ـ كما لو كانا ليس اكثر من « زميلين » سعيدين ! ..

حينذاك توقف القطار ، ونزل منه الاستاذ بعد أن صافحنا جميعا ، ثم لوح لنا بكلتا يديه ، ولما اقفل باب العربة وراءه .. عاد ثانية فأطل من خلال النافذة براسه ، محييا ومودعا وهو يهمهم بعبارات الشكر للجميع .. وقبل أن يأخذ طريقه قدما .. عاد فرجع خطوة وهو يميل من فوق الرصيف فى تلكؤ يقول للمفتش : « اوعى تنسى » !! .. فرد عليه مفتش الزراعة ملوحا له أيضا وبين اصابعه البطاقة : « حاضر .. الى اللقاء ومع الف سلامة » !

وبعد أن هدات ضجة التوقف على المحطة .. وعدنا انا وسميحة الى مراقبة « الارنبة الجميلة » وتأمل انامل كفيها المخضبتين بالحناء القانية ،

والتعليق على ابلغ حركات « مرزوق » وليدها ، الباسم الضاحك بلا انقطاع مثلها .. !

كان مفتش الزراعة فى ذلك الآن يشرح للحلقة التى التفت حوله ومن تحت « عرشه » العالى ، فى تقدير ، كيفية تطعيم النباتات والشتلات بحيث يتحول « النارنج » فيصبح ـ حسب الطلب ! ـ ليمونا أو برتقالا أو «يوسفندى» !! .. وكيف ان عود العنب الواحد فى الامكان تربيته ـ وفق المزاج ، وتبعا للحاجة ! ـ فيكون الناتج « عنب ارضى » أو « عنب سلوك » أو عنب ـ كاللبلاب السامق ـ يطرح فوق « تكاعيب » !!

وكان تعليق المعلم كرشة الذى طفى على همهمات الآخرين عبارة قالها باعجاب :

ـ ياقوة الله !.. الله يفتح عليك!.. أما حتة مفتش انما ... عترة .. !

وكان المفتش لبقا وانيس المحضر لطيفا والحق يقال ، لانه عندما جر الحديث موضوع أجهزة راديو «البطارية» المنتشر بغزارة فى الارياف وكيف أن « الترانزستور » قضى عليه قضاء مبرما ، وأنها سنة التطور وارتقاء العلم .. راح مفتش الزراعة يستفسر المعلم عن أنجح الطرق لـ « تزويج » جهاز مذياعة القديم .. اذ انه بسبيل دفع قسط أول لحجز « تليفزيون » بالمرة ! .. فقال له المعلم : « من عينى » !! .. وهنا مد المفتش يده فى جيبه واخرج حافظته واستخرج من تجويف فيها احدى بطاقاته واعطاها لـ « المعلم كرشة » ورجاه أن يزوره ! .. ثم اخرج قلما وراح يسجل على ظهر « كارت » الاستاذ المعمم ، عنوان المعلم كرشة من الوقت الذى كان فيه المعلم

يملى عليه العنوان مفصـــلا بخريطة جغرافية تبين طرق الوصول اليه .. !

وهدات سرعة القطـار ايذانا بقرب توقفه على محط محافظتنا .. وتأهبت للنزول .. واذا بى ارانى مضطرا الى « خلع » سميحة من عمق الشرود بعيد الفور الذى غاصت بجماع وجدانها فيه وراء تأملاتها الصامتة الهائمةفىالعروس الريفية الصغيرة وطفلهـا « مرزوق » الضحوك ، وكانا طوال الوقت لا يكفان لحظة عن المناوشـة ، والابتسـام ، والنهنهة .. !

وفيما نحن ـ انا وسميحة ـ نستعد للتقدم لنقترب من البـاب .. راينـا مفتش الزراعة يعانق المعلم كرشـة بحرارة وصدق فى كثير من التقدير .. وراح المفتش يقول وهو يتأهب معنا لينزل بدوره على ذات المحطة الآتية :

ـ فرصـة سعيدة ! .. والله انى لست نادما على الفـارق فى تذكـرتى الممتـازة تذكرة الدرجـة الاولى .. اقسم بالله انى قضيت وسطكم اسعد والذ « سفرية » فى حياتى ... !!

وشيعه المعلم فى احترام ضاحك : « ابن حلال ياسنجاب ! .. فى حفظ الله يامفتش ! .. أما مفتش انما ... آخر ظرافة » !!

ونزلنا ، وفى ظنى أن كل ما كان سوف ينسى حالما تطأ اقدامنا « البر » على أرض رصيف بلدنا ...

الا ان الذى ادهشـنى ، وسرنى واسعدنى ، هو اننا وبعد ان قطعنا اكثر من كيلومتر ، مشيا فى وجوم وصمت .. فوجئت بـ « سميحة » تستوقفنى ، بغتة ، متوهجة الوجنتين وقد تألقت عينـاها ببريق محير ، .. وفى حالة ليست اطلاقا بنت لحظتها قالت خجلى ولكن فى عزم حازم ، وبصوت مرتعش مرهف خالطته نغمـات سـحيقة العمق لم تكن من قبل مألوفة قط فى أى من طبقات صوتها :

ـ اسـمع .. مفيش مانع ، زى بعضه .. و .. و .. و .. وكفـاية علينا « مرزوق » واحد .. !! ؟ !!!